التواصل بين العلم والدين من خلال الفقه الإسلامي

أ.د/ علي عزوز

كلية العلوم الإسلامية ـــ جامعة الجزائر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد.

فإنّ مما يدعو إلى الاهتمام في هذا العصر الذي تظهر فيه الاكتشافات والاختراعات باستمرار موقف المسلم منها من خلال مفهوم الدين والعلم. والعلاقة التي توجد بينهما. وهذا الأمر تترتب عليه أسئلة تعرف حلولها وتنحصر أجوبتها في نقاط أساسية:هي هل مفهومهما متقارب ومتوافق أم هما متعارضان؟ وإذا كانا متوافقين هل هما منفصلان أم متداخلان أم متكاملان؟ وهل هذا الجواب المفترض متحقق في المنهج والموضوع أو في أحدهما؟وهذا يتجلى عند النظر إلى الإنسان وإلى الكون. ثم عرض نموذج تطبيقي للتحقق من تواصل العلم والدين من خلال الفقه الإسلامي أو انفصالهما؟ وللإجابة على ذلك جاء هذا البحث موسوما بـ" علاقة العلم بالدين" أتناول فيه ثلاثة عناصر أساسية: إشكالية تصور التعارض بين الدين والعلم في المنهج والموضوع.

- نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى الكون.
- علاقة العلم بالفقه الإسلامي بين الانفصال والتواصل.
- إشكالية تصور التعارض بين الدين والعلم في النهج والموضوع

إنّ تعارض الدين والعلم غير وارد لأن القرآن الكريم بقي مصونا من عادية التحريف. ولم يختلط بخرافات وعقائد مخالفة للعلم والعقل.وإذا كانت ثمة تعاليم تبدو متعارضة مع العلم فإن هذا الأمر إنما هو بدوي. وهناك من يتصور أن هذا الحل رفع اليد عن المعاني الحقيقية والظاهرية للنص. يخدم كلا من العلم والدين ويحمي ساحة الدين من الوقوع في مورد التعارض مع العلم ولكن بالتأمل يبدو أن هذا الطرح لا يعد حلاً لموارد التعارض. وإنما يعد تكريسا لسيادة العلوم الإنسانية والتجريبية على الدين في موارد التعارض. والحكم بلزوم تقديم هذه العلوم على الدين دائما وأبدا ما يؤدي بالتالي إلى

تضييق دائرة الدين ومصادرة كل قيمة معرفية للدين. وهذا اللون من التعاطي يؤدي إلى تفريغ التعاليم القرآنية والروايات من مضامينها وبذا لا يبقى للدين أي دور عملي في المجتمع. كما أن الاعتقاد بأن القرآن يحتمل الخطأ لا يتفق مع موقف الإسلام إزاء القرآن. كما يخالف أصول هذا الدين ومرتكزاته. إذ القرآن ليس تفسيرا للوحي النازل على قلب الرسول ﷺ من دون زيادة أو نقصان أو تفسير يضاف إلى نص القرآن.ويشكّل العقل والنقل مصدرين أساسيين في الإسلام بحيث إن النيل من أحدهما يعد مصادرة لأهم مصادر التعرف وطرقه على الإسلام.

ودعوى حصر الدين في الجانب الفردي وإلغاء المدلول الجماعي في العصر الحاضر يترتب على الكثير من التصورات فيما يرتبط بإشكالية تصور التعارض بين العلم والدين أن الإيمان أمر فردي وقلبي. ومن ثم فلا علاقة له بالمجتمع والقضايا الاجتماعية. ولا شك في أن مثل هذه النظرة إلى الدين تتضمن مصادرة الكثير من التعاليم القرآنية ونسفها وهذا ما لا يرتضيه الإسلام أبدا.و الآيات القرآنية والروايات الواردة عن النبي ﷺ التي تعنى بالأبعاد الاجتماعية في حياة البشرية.ومقارنة هذا الحجم الكبير من النصوص في خصوص المجال الفردي للحياة تبين مما لا مزيد عليه بطلان هذه النظرة وتهافتها. فقد بذلت جهود جبارة – منذ قرون – لحصر الإسلام في دائرة الاعتقاد الوجداني والشعائر التعبدية.وكفه عن التدخل في نظام الحياة الواقعية. ومنعه من المهمة الكاملة على كل نشاط واقعي للحياة البشرية – كما هي طبيعته.وحقيقته ووظيفته. وقد نجحت في فصل الدين عن الدولة في هذا العصر في الدول العربية والإسلامية[1] .إن دعوى التعارض بين العلم والدين تختلف باختلاف العلوم فالعلوم الإنسانية لا ترقى إلى مستوى العلوم التجريبية من حيث دقتها ومدى وثاقتها لأن احتمال حدوث الخطأ فيها ومعطياتها أكثر منه في العلوم التجريبية من جهة. ومن جهة أخرى فإن وجهات النظر الإسلامية في هذا المجال لم تنقح بعد. كما أنها قابلة للتطوير والتعميق. إذ من الواضح أن القابلية للتطوير والتصحيح هي من أوليات التعامل ومستلزماته على أن موقف الإسلام في خصوص أصول الدين وضرورياته واضح وثابت إلى حد كبير. أما في مجال العلوم الإنسانية الأخرى فإن إمكانية التطوير وإعادة النظر متاحة ومتوافرة.كما أن الإلمام بموارد التعارض بين الإسلام والعلوم الإنسانية ليس بالأمر الهين إذ من الواضح أن التعارض بين العلم والدين، إنما يتم في المورد الذي يصدر كل من العلم

والدين حكما يتضاد به الآخر. أو الذي يكون فيه أحدهما حاكما على الآخر ومبينا لموضوعه. ولا في الموارد التي تتعدد فيها الأحكام تبعا لتعدد جهة الحكم في الإسلام والعلم ففي بعض الموارد التي يتراءى فيها أن هناك تعارضا بين الإسلام والعلم نجد بعد التحقيق أنه ليس هناك تعارض جاد أو حقيقي بين الاثنين.

إن الدين هو الانقياد لله وفق قوانينه الكونية بالأسلوب الذي يشرعه هو سواء على مستوى العبادات أو المعاملات والمجالات الأخرى. بينما نجده معرفا عند غير المسلمين مجرد شعور بالاعتماد على المطلق أما العلم فهو سلسلة من تصورات ذهنية ومشروعات تصورية مترابطة متواصلة هي نتاج حدثي الملاحظة والتجريب. فهو في تصورهم منفصلان متكاملان بهذا المعنى بالنظر إلى غير الإسلام. أما الدين الإسلامي فإن مبادئه وأحكامه وتفاصيله تؤدي بنا عند محاولة فهمنا لمعنييهما إلى أن هناك تكاملا بينهما لأن كلا منهما محاولة للاتحاد بالكلي أو المطلق، والانسجام مع القوانين الكونية وكشف حجب الحقائق كما هي وفق طريقين متكاملين: طريق شرعه الله تعالى، وطريق يجتهد فيه العقل. فإن المسيرة التاريخية لمبادئ الدين والعلم المنبعثة من أصولهما ومبادئهما لا تفيد تنافرا بل تفيد التكامل . فإن حضارة عصر النهضة التي انبثقت عنها الحضارة الحديثة قد أنتجت التحاما بين الدين والعلم. فإن أهمية العلم في الإسلام معلومة فهو مطلوب ومرغوب فيه ففي الحديث " الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلاّ ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما". بل هو فريضة عموما. كما يشترط فيه ابتغاء وجه الله تعالى ففي الحديث" ورجل تعلم العلم وعلّمه فأتيَ به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل فسحب على وجهه حتى ألقي في النار". كما أمر الإسلام بالسفر من أجل طلب العلم قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. كما أن العلم هو موهبة قال أحد الفقهاء" إنما العلم مواهب يؤتيه الله من أحب من خلقه وليس يناله أحد بالحسب ولو كان بالحسب كان أولى الناس به أهل بيت رسول الله ﷺ". وقال آخر" إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وقعد ثلاثا وقال ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب من هذه إلي".

كما أن العلم يورث فقد جاء في الحديث " إنّ العلماء ورثة الأنبياء "[8] وقال ﷺ " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث إلاّ من صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[9]. كما أوجب العمل به. وأمر بالتحبب فيه التسرع في إصدار الأحكام. وعدم السؤال عن الغرائب وعما لا ينتفع به وما لم يكن. وعدم البحث عن الأغلوطات. وكره الكلام في الوساوس والخطرات. أو مخاطبة العوام بما لا يفهمون. والامتناع فيه عن الكذب وكراهية التشدق فيه وتكلّف الفصاحة. ولضرورة اعتباره كان انعدام العلماء من دلائل قرب القيامة[10]. لقد حشد القرآن ما يقرب من خمسين آية في تحريك العقل البشري وانتشاله من وهدة التقليد والبلد. كما حشد عشرات الآيات في إيقاظ الحواس. وعشرات أخرى في إيقاظ التفكير والتفقه فضلا عن آيات طلب البرهان والحجة والجدال بالتي هي أحسن. بل أطلق كلمة العلم على الدين بقول تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن من الظالمين﴾[11]. أي الدين. كما أنه في الحضارة الإسلامية لم يكن ما يسمى بالنزاع بين العلم والدين حيث جاءت الأدلة تشيد بالعلماء في آيات قرآنية تتحدث عن علوم طبيعية كونية وعلوم تتعلق بالإنسان والنبات من حيث كمال الخلق ودقة الصنع واطراد النظام منها قوله تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور﴾[12]. كما اعتبر الإسلام معنى العبادة شاملا لأركانه وغيرها. فيدخل فيه كل عمل صالح يبتغى به وجه الله تعالى. والعلوم الطبيعية والكونية والإنسانية تحقق مصلحة للعالم إما مباشرة أو بواسطة فيكون الاشتغال بها من العلوم الضرورية الواجبة التي يتطلبها الإسلام. فالبيروني مثلا يكتب عن إيضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة. وعبد اللطيف البغدادي يكتب في الطب من الكتاب والسنة وابن النفيس يكتب في الفقه. وابن رشد الحفيد الذي برع في الطب والفقه وهذا يدل على أن العلم في الإسلام وعند المسلمين لم يكن محصورا في علوم الشريعة. وإن كان لها الأولية ولكن العلم عندهم كان شاملا لعلوم الشريعة والعلوم الأخرى التي انتقلت إلى اللغة العربية بالترجمة وقام المسلمون فيها بجهد كبير شهد لهم به مؤرخو العلم الذين أثبتوا أن تقدم العلم عند المسلمين كان أشبه بالطفرة. وكان اجتهادهم لا يصدهم عنه شيء. ولا يحول بينهم وبينه حائل. فكان هذا شبيها بمجال الفقه والاجتهاد فيه. فقد نهى الأئمة تلاميذهم عن تقليدهم.

ولكن اختلاف طريقة الاجتهاد في العلوم الشرعية بإنشاء مدارس فقهية عن طريقته في العلوم الأخرى حيث كانت تتم بطريقة فردية لم يتحقق التواصل فيها. فكان يذهب عمل المجتهد بموته أو انقطاعه عن مباشرة بحوثه. وقد عانت العلوم انتشار فكرة غلق باب الاجتهاد ورسوخ التقليد والجمود. ولكن استقالة علماء المسلمين في الحال الشرعي لم تمس العلوم الأخرى. وقد اعتبر الطبيعيون والفلكيون والرياضيون أنفسهم في عبادة لا تقل عن عبادة إخوانهم علماء الدين. فقد وضعوا منهجا تجريبيا حسيا وعقليا مختلفا عن المنهج اليوناني. كما وضعوا نظريات علمية مستقلة للمعرفة "استيمولوجيا" وقد ظلت آثارهم هي الآثار العلمية المعتمدة في عصورهم منهم ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى. وجابر بن حيان مكتشف الكاوية وحامض الكبريتيك بعد تقطيره. والرازي مكتشف زيت الزاج.وعدة أمراض. وابن الهيثم مكتشف علم البصريات والفرغاني واضع علم المثلثات. والادريسي عمل كروية الأرض فضلا عن ابن حزم الذي عقد فصلا كاملا عن إثبات كروية الأرض نقلا وعقلا وغيرهم [13]. فكان جميعهم يتعبدون بعلمهم ويتقربون به إلى الله دون أن يشعروا بأي انفصال فضلا عن نزاع بين الدين والعلم. بل كثيرا ما كان بعضهم فقهاء في علوم الدين ورجال علم في الوقت نفسه كما أنهم لم ينطلقوا من فكرة التوافق والتكامل. ولا يمكن اعتبار ما قام به بعض المفسرين محالا وسببا لاختلاف العلم والدين كما أشار إليه الشاطبي بقوله:"إن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد. فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات. والتعاليم –أي الرياضيات والهندسة وغيرها– والمنطق. وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ...وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه. ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم وما ثبت فيها من أحكام التكاليف.وأحكام الآخرة وما يلي ذلك .

ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر. لبلغنا منه ما يدل على أصل المسألة ....[14] وفي الأثر عن مسروق قال جاء إلى عبد الله رجل فقال تركت في المسجد رجلا يفسّر القرآن برأيه يفسّر هذه الآية: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام فقال عبد الله من علم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم. من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به الله أعلم إنما كان هذا أنّ

قريشا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد وحتى أكلوا العظام. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله استغفر الله لمضر فإنهم قد هلكوا فقال لمضر إنك لجريء فدعا الله لهم فأنزل الله عز وجل: « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون » قال فمطروا فلما أصابتهم الرفاهية قال عادوا إلى ما كانوا عليه قال فأنزل الله عز وجل « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » قال يعني يوم بدر[18]

أما بالنسبة لمنهج البحث فإنه لا يمكن تصور اختلاف فيه. فهما متفقان في ضرورة التوافر في الباحث الجيدة والعدل والنزاهة والموضوعية. وكذلك في تنظيم الأفكار والتمهيد لها ببعض الفروض ثم اختبار هذه الفروض. واستخلاص الظواهر العامة منها في ظل شمولية ودقة واستقراء كامل.

وبالنسبة للموضوع فإن اختلاف الحالين ينبغي أن يكون نقطة التقاء. فلا تعارض بينهما بل هما متكاملان. فموضوع البحث الديني "الميتافيزيقا" وموضوع البحث العلمي هو "الفيزيقا" وهذا لا يتأتى مع موضوع البحث الإسلامي لأنه يبحث فيه الإنسان والكون الذي هو موضوع نظر العلم. بل عاد علماء البحث العلمي حيث رأوا أن الفلسفة التجريبية إنما نشأت في جو نظام فلسفي متصل بما وراء الطبيعة وأنه لولا هذا النظام لما وراء الطبيعة لما كان تجريب. ولا كان علم وهو دليل تقارب وحدة الموضوع بين الدين والعلم. فإنه يدرك وجود الله تعالى وإدراك القوانين واستنباط الكليات ولكن ما لا يمكن أن يتداركه التفاصيل والجزئيات التي يأتي بها الدين. فالعلم عاجز عن كنه الله تعالى لأنه ليس كمثله شيء. ولأنه لا يدرك بالحواس. ولذا لم يكتف العلم بالوسائل الحسية والتجريبية. بل ارتكز على أساليب عقلية وافتراضية واستنباطية مثلما الحال في منهج البحث العلمي.

أما أصل توهم مشكلة بين العلم والدين .فإنه ينبغي إزالته بدراسة النصوص المنسوبة إلى الله تعالى دراسة تاريخية نقدية وعلمية لكي نثبت ما صدر عن الله. وننفي ما أضيف من البشر . فبالنسبة للمسلم فإن القرآن الكريم متواتر. والسنة النبوية تنقى من ناحية السند ثم من حيث المعنى بتوافقها مع القرآن. لتضمنه إشارات علمية كثيرة.

إن اعتناق مئات الملايين من الناس الدين الإسلامي تولد عنه صراع مع العقائد الأخرى ليثبت منها في نتيجة المعركة ما هو أصلح للإنسان وما هو أعرف له في تقدمه وإسعاده ماديا ومعنويا .ولذلك كان مما يسعى كلّ إنسان أن يعرفه هو موقف الإسلام في مختلف القضايا الحيوية ومن أهمها موقفه من التفكير العلمي الموضوعي .من الكون أو الطبيعة ومعرفة قوانينها وسننها ومن استثمارها والسيطرة عليها .ليحدد نتيجة ذلك أيضا موقفه من الإسلام نفسه.

نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى الكون:

كانت نظرة الإسلام إلى الكون في خطابه للإنسان من الإنسان نفسه ومما يحيط به من الكون وأجزائه وحوادثه ومشاهده .وإلحاح القرآن على ذكر مشاهد الكون وحوادثه وتكرار لفت النظر إليها يتردد في القرآن تردد كثيرا ذكر السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال والماء والمطر والرياح والسحب والزرع والنبات والشجر والفواكه والشراب . فكان وصف القرآن الكريم للكون بعيدا عن الخرافات والأساطير .وجعل الارتباط بين الحوادث ارتباطا موضوعيا بين المقدمات والنتائج بين الأسباب والمسببات كقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ..﴾[16] وقال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[17] وقال:﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة ءايات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح لآيات لقوم يعقلون﴾[18] . كما تولى محاربة الخرافات والتعليلات السحرية والأسطورية والنبوات التي هي من هذا النوع واستعاضها وتعاطيها بدلا من الأسباب الكونية التي أرشد إليها مثل حديث كسوف الشمس في حياته ﷺ وكان في ذلك اليوم نفسه يوم وفاة ولده إبراهيم فظن الناس أن كسوف الشمس كان بسبب وفاة ولده فبلغه ذلك فقال: "إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما من آيات الله يخوّف الله بهما عباده فإذا رأيتم كسوفا فاذكروا الله حتى ينجليا"[19] . كما قسّم الله تعالى خلقه إلى ما يمكن مشاهدته وإلى ما لا يمكن ذلك قال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[20] كاخواء.كما أنّ خلقه كان بقدر وميزان قال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[21]. وقال: ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾[22].

كما أيد الرسول ﷺ التجربة العلمية المستندة إلى الأسباب العادية كما في مسألة تأبير النخل "أنتم أعلم بأمر دنياكم"[illegible]. وفي رواية "إن كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به وإن كان من أمور دينكم فإلي"[illegible]. كما جعل الإسلام الكون موضوع تفكير الإنسان وتأمله هو كذلك موضوع انتفاع وتمتع كما يعرضه القرآن الكريم فحينما ذكر الكون أو بعض أجزائه من النبات والزرع والأنعام والدواب والماء والبحر... أشار القرآن إلى ما ينتفع به الإنسان منه. وعلى سبيل المثال نذكر قوله تعالى: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[illegible].

فكان تغيير الإسلام الصلة بين الكون والإنسان من كون مقدس معبود يعلو على الإنسان إلى طبيعة مسخرة ومذللة وخاضعة للإنسان الحاكم عليها والمستثمر لها تغيير في مجرى الحضارة كلها وخروج من تعطيل الإنسان وانحطاطه إلى تنشيطه ورفع مستواه. من أجل هذا كان الإسلام متشددا في كل مظهر من مظاهر الوثنية لئلا تطل برأسها من جديد في أي شكل من الأشكال. وهنا تبدو قيمة (التوحيد) وأهميته الحضارية[illegible].

وإذا رجعنا إلى الماضي لمسنا منه مآثر حقيقية في كل من مناحي التفكير واحجمنا وكلت أبصارنا عن النظر في مثل تلك الآفاق الواسعة التي تنبت بحق ما كانت تقوم عليه الحضارة الإسلامية من سعة في التفكير لم يكن الدين على ازدهاره إذ ذاك ليضيق به ذرعا. بل كانت تغذيها وروح الإسلام تدفع الناس إليها. وهو مما يستلزم منا إعادة التصور لمفهوم الدين عند الناس. فهو أوسع من أن يسمى دينا بالمفهوم الحالي لهذه الكلمة. وإنما هو الطريقة المثلى في الحياة في جميع نواحيها وشعبها وعلى هذا النظام المحب والخلق الكامل والإحكام والحسن والله هو المنفرد بالربوبية والألوهية وواسع الرحمة والحكمة.

علاقة العلم بالفقه الإسلامي بين الانفصال والتواصل:

وفي هذا الإطار ترد إشكالية تفرض نفسها وتقتضي منا حلها وهي كيف تمكن الفقه الإسلامي بوصفه المرشد السماوي للحياة الدنيوية أن يبقي على الحياة صبغة دينية من دون أن يؤدي ذلك إلى اختلال أو اضطراب. وكيف يمكن التوفيق بين النقل المتضمن التشريعات الفقهية وبين الملكات العقلية وكيف يمكنه أن يتوافق مع متطلبات العصر المتغيرة

والظروف الاجتماعية الدائمة التحول .ويقدم للمجتمع الإسلامي والبشرية أجوبة عصية طرية جديدة على الدوام ؟

إنّ أساس هذه القضية هو صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان .كما تؤكدها المقولة المشهورة عند الأصوليين "إن مآخذ الأحكام محصورة مضبوطة من الكتاب والسنة والإجماع. والوقائع لا تنضبط ولا تتناهى. ويستحيل أن يرد ما لا يتناهى إلى ما لا يتناهى"[27]. مما استلزم استخراج أصول وقواعد من النصوص فتمكن من خلالها الوصول إلى الأحكام فكان اعتبار الفقيه لها داخلا في الاجتهاد. قال إمام الحرمين " من تأمل قواعد الشريعة وجدها مترددة بين طرفين أحدهما محصور.والآخر غير محصور. فالنجاسة محصورة. والطهارة لا حصر لها. والتحريم محصور. والإباحة لا حصر لها"[28]. ونتج عنه اختلاف في تصور العلاقة بين الفقه والعلم فنظر بعضهم إلى أن علاقتهما استهلاكية. فالعلوم الحديثة منتجة ومحددة لمجرى الحكم الفقهي. وهذا غير صحيح عند إطلاقه. بل هو خاضع لأصول وقواعد مستخرجة من النصوص الشرعية وهو الدين بمعنى التدين والعبادة بدليل المصلحة الشرعية[29].كما رأى آخرون أن الفقه حاكم على الحوادث والمستجدات بدليل الاستصحاب[30] فبيّن ما هو صحيح مقبول وما هو غير ذلك. وهذا أيضا غير صحيح مطلقا لأن الشارع فسح المجال لجانب العقل. كما أنّ الشريعة تمتاز بالعموم والشمول والإطلاق .ولا تتحقق هذه الأوصاف إلا بتناسبها مع العقول ودفع أي توهم لتعارض العقل والنقل .

وبناء عليه. يمكن الاستفادة من العلوم لخدمة الفقه الإسلامي بأن يتطلب ذلك الرجوع إلى أهل الخبرة والعلوم المختلفة في مجالات محددة :

1-في موارد التحديد كمعرفة نصاب الزكاة نصاب حد السرقة. مسافة القصر في السفر. وغير ذلك

2- في المستجدات التي لم يرد فيها نص شرعي .

ولذا جعل بعضهم يعتبر الفقه مجرد علم مستهلك .

ولكن الإشكال الحاصل ورد في صميم الأحكام المنصوص عليها. مثل مسألة عدم رد النبي ﷺ الكعبة على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام[31].وسماح النبي صلى الله عليه وسلم للمنافقين المعلومين بالعيش بين المسلمين. مع ما جاء من إيذائهم للمسلمين[32]. تحديد الصلوات المفروضة بالخمس في حادثة المعراج من أجل استحيائه ﷺ من ربه[33]. عدم إنكار

النبي ﷺ على الذين صلوا في طريقهم إلى بني قريظة عندما أدركتهم الصلاة، ولم يؤخروها إلى بني قريظة[34] مما يستوجب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام. والصلاة لأول وقتها من أفضل الأعمال.سواء تعلق الأمر بالعبادات كالأذان بمكبر الصوت(الميكروفون)، والمعاملات كالعقود في اشتراط التفرق عند حصولها بواسطة الهاتف أو الفاكس، أو المتاجرة بالأعضاء، والعادات كالجراحة التجميلية وتغيير خلق الله، والجنايات كالحدود في مسألة زرع يد للسارق المقطوعة يده في الحد، أو استرجاع البكارة بالنسبة للزانية مما يصعب التفريق بين البكر والثيب باعتبار الأصل، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة في ظل التطور الطبي والاقتصادي، والعسكري، والثقافي والإعلامي والمكتشفات التي لا يكتفى للوصول إليها بناء على نتائج متوقعة فحسب، فيكون بعد ذلك في ميزان البحث عن حكم الله تعالى. وهذا يتطلب أمورا مهمة منها:

- إعطاء النصوص الشرعية مفهومها الواسع في إطار العموم والإطلاق والشمول.
- إعادة النظر في مفهوم المصلحة الشرعية واعتبارها دليلا وفق المعطيات الجديدة.
- فصل أحكام المسائل عن طريق الاختراع عن النوازل، لكونه في الأولى يعمل ويجتهد في اكتشافها ويقصد بها العبادة بتحقيق المصلحة أو دفع المفسدة أو رفع حرج بخلاف النازلة فهي تقع دون أن يقصد حدوثها.

من الاكتشافات ما يدخل في الثوابت فيصدر في حقها الأحكام، ومنها ماهو قابل للتغير والتطور فيصح فيها الفتوى.

عدم التخوف من الانفتاح نحو الغير وتلقي ما عندهم من علوم حديثة بحجة الخشية من شبهة تصادمها مع التشريع الإسلامي، وهو ما يتنافى معها بالدعوة عن طريق إقامة الحجة.مثلها مثل مسألة غلق باب الاجتهاد في الفقه الذي أدى إلى تجميده فترة، واقتحام طائفة من العلماء مسائله عن طريق مقاصد الشريعة الإسلامية.

العمل على تحقيق مرضاة الله تعالى باعتبار المقاصد الباطنة، والإكثار من العبادة، فقد جاء في الحديث القدسي"ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها"[35] وباتباعه ذلك يوفق في الوصول إلى الاختراعات المحققة المصلحة بعيدة عن الإضرار بالنفس وبالغير أو الغش وغير ذلك وهو ما يقرره الحديث " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[36].

ولذا، أرى ضرورة تكوين جيل العالم المسلم المعاصر. ولتحقيق ذلك يجب أن تتوفر عناصر ثلاثة:

– تحصين هذا الجيل بالعلوم الشرعية.

– تعليمه اللغات غير العربية. لأن تعلمها في القرون الماضية كان لترجمة مختلف العلوم بسبب الإعجاب بها. أو للاستفادة منها. أو لتحصيلها قصد الاستقلالية في كل شيء وتحقيق الريادة في العالم للقيام بالدعوة إلى الإسلام على أكمل وجه.

– تمكينه من تحصيل العلوم الحديثة والبحث فيها والابتكار. لأنّ الخطأ بدأنا فيه منذ تقسيم الإسلام إلى شؤون دينية وشؤون دنيوية. وهذا يستوجب على العلماء أن يؤكدوا على الدعوة إلى الإحاطة بالعلم في كل نواحي الحياة. سواء كان علم اقتصاد أو اجتماع أو نبات أو حيوان أو صناعة واعتبار ذلك فريضة دينية[37].

وليس معنى هذا اطلاع الفرد على كل العلوم وبدركها.سواء في العلوم التجريبية "التعاليم" التي تتطلب مشاهدة واختبارا وتجربة. أو العلوم الشرعية كالفقه والأصول التي لا يمكن أن يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من أهل المذاهب في مسائل الخلاف التي وقعت المناظرة فيها بينهم، بل لا له من الرجوع إلى ما توصل إليه من قبله للبناء عليها[38]. والله أعلم.

الهوامش:

---

[1] سيد قطب. المستقبل لهذا الدين 5

[2] مواقف حاسمة في تاريخ العلم ص 46 دار المعارف. انظر " لا نزاع بين الدين والعلم في المنهج والموضوع للدكتور عبد الحليم عويس ص 10. دار القلم. ط1 1980

[3] أخرجه الترمذي في سننه (2322)، وابن ماجة في سننه (4112).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه (1905)

[5] سورة الأنفال آية 122

[6] محمد بن مفلح. الآداب الشرعية في المنح المرعية 63/2

[7] القائل أبو سليمان الدارني. نفس المصدر والصفحة.

[8] أخرجه أحمد في مسنده (21208)، الترمذي في سننه (2682)، أبو داود في سننه (3641)، ابن ماجة في سننه (223).

[9] أخرجه مسلم في صحيحه (1631).

[10] أخرج البخاري حديث: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء حتى لا يبق عالما اتخذ الناس جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" (100).

[11] سورة البقرة 145

[12] سورة فاطر آيات 27-28

[13] حيث قال" البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها. الفصل في الملل والنحل دار الجيل- بيروت تح محمد إبراهيم نصر. د. عبد الرحمن عميرة 2 241-251

[14] الشاطبي. الموافقات تح عبد الله دراز دار المعرفة – بيروت ط2 1395هـ-1975م 2 79-80

[15] أخرجه مسلم في صحيحه (2798).

[16] سورة الحج آية63

[17] سورة فصلت آية 53

[18] سورة الجاثية آية 5

[19] أخرجه مسلم في صحيحه (901).

[20] سورة الحاقة آية 38-39

[21] سورة الفرقان آية 2

[22] سورة الحجر آية 19

[23] أخرجه مسلم في صحيحه (2363)

[24] أخرجه أحمد في مسنده(12135، 22040)، ابن ماجه في سننه (2471).

[25] سورة النحل آية14

[26] محمد المبارك. الإسلام والفكر العلمي دار الفكر ط 2 1400هـ-1980م ص 44

[27] قاله القاضي الباقلاني. الجويني. البرهان في أصول الفقه تح د. عبد العظيم محمود الديب ط1 1412 هـ-1992م دار الوفاء – مصر 2 882، 1527).

[28] المصدر نفسه (1529).

[29] المصلحة عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة. والمراد بها المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهي ثلاثة أقسام مصلحة اعتبرها الشرع، مصلحة ألغاها، مصلحة مرسلة. انظر الغزالي. المستصفى من علم الأصول ومعه كتاب فواتح الرحموت للأنصاري. دار المعرفة – بيروت ط1 بمصر (مطبعة بولاق) 1322هـ ، 1 286، 284-287

[30] الاستصحاب هو الحكم على الشيء بما كان ثابتا له أو منفيا عنه، لعدم قيام الدليل على خلافه، وهو نوعان:

1- استصحاب حكم العقل بالإباحة أو البراءة الأصلية عند عدم الدليل على خلافه.

2- استصحاب حكم شرعي ثبت بالدليل ولم يقم دليل على تغيره. علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي ص 172.

[31] متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (3368-1583-4484)، ومسلم في صحيحه (2851).

[32] أخرجه مسلم في صحيحه (2584).

[33] أخرجه البخاري في صحيحه (349).

[34] متفق عليه: البخاري (4119)، ومسلم (1770).

[35] أخرجه البخاري في صحيحه (6502).

[36] بلاغات مالك، الموطأ (الجامع).

[37] من كلام الشيخ أحمد كفتارو، مفتي الديار السورية. انظر شوقي أبو خليل، الإنسان بين العلم والدين، دار الفكر ط2 1977م

ص: 235

[38] انظر ابن رشد الحفيد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الطبعة الكاثوليكية – بيروت ص 32-33.